من الشباب الباكر إلى النضج (2)

الأخ محمد قطب

وينمو الفتى نمواً عقلياً واسع المدى ..

حقيقة إنّ خبراته لا تكتمل في هذه المرحلة من العمر . بل إنّ مرحلة النضوج ذاتها لا تكتمل الخبرة في أولها ، ولا يزال الإنسان يتعلم ويضيف إلى خبراته مهما امتد به العمر . إنما يكون الإنسان في سن الأربعين مثلاً قد حصل على قدر معقول من الخبرة والتجربة يؤهله لحمل المسؤوليات الكبيرة . ويلفت نظرنا في هذا الباب بعثـــة رســـول الله ﷺ وهو في الأربعين من عمره ، وقوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَـــعَتْهُ كُرْهًـــا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْـــكَ وَإِنِّـــي مِـــنَ الْمُـــسْلِمِينَ** ﴾ [الأحقاف : 15]

فالخبرة إذن لا تكتمل في مرحلة الشباب الباكر ، بل الأحرى أنها تبتدئ حينئذ مجرد بدء ، وتظل السنوات تضيف إليها حتى يحصل الإنسان نصيبه منها في سن متأخرة .

ولكن النمو العقلي ، والاستعداد لتلقي التجارب واستفادة الخبرة منها هو الذي يحدث في هذه الفترة على نطاق واسع .

فأما مستوى الذكاء المقدور للإنسان فإنه يبلغ ذروته في هذه الفترة ولا يكاد يزيد بعد ذلك ، كما تبلغ القامـــة ذروتها في الارتفاع المقدور لها ولا تكاد تزيد بعد ذلك !

أما الحصيلة العقلية التي يؤهل لها ذلك المستوى من الذكاء فهي تمتد بامتداد العمر ، أو على الأقل حـــتى تنتـــهي الفترة الخصبة من العمر في حوالي الخمسين عند كثير من الناس . ولكن القدرة على التحصيل في هذه الفترة بالـــذات قدرة فائقة بشكل ملحوظ . في تلك الفترة يقرأ الشباب معظم قراءاته ويطلع معظم اطلاعاته ، قبل أن تخبو فيه رغبة القراءة والاطلاع بعد إتمام دراسته والانغماس في مشاغل الحياة .

والأصل الواجب ألا ينقطع الإنسان عن التحصيل والاطلاع لكي لا يتوقف نموه العقلي والعلمـــي .. والعملـــي كذلك . لكن حتى الذين يقومون بهذا (الواجب) يعلمون أن فترة (النهم) في القراءة والاطلاع هي فتـــرة الـــشباب الباكر ، حيث الرغبة والقدرة معاً متوفرتان ، وحيث يستطيع بعض الناس أن يقرأ كتاباً كاملاً كل يوم ، بلا ملل ولا

رغبة في الانصراف !

وتبدأ هذه الفترة –على نظم الدراسة الحالية– في نهاية المرحلة الثانوية ثم تستوعب المرحلة الجامعية كلها وسنوات أخرى بعد التخرج . وفيها يحصل الشاب –سواء عن طريق الدراسة المقررة أو عن طريق اطلاعاته الخاصة –الجـــسم الأكبر من (المعرفة) التي يعيش بها بقية حياته ، يضيف إليها دراسات واطلاعات جديدة فيما بعـــد إن كـــان مـــن أصحاب النفس الطويل في التعلم ، ويتوقف عندها إن كان ممن تفتر حماستهم للمعرفة بعد ذلك .

ولا يكاد يوجد نوع من المعرفة يستعصي على الشباب في تلك الفترة –مع مراعاة الميول الخاصة بالطبع– إلاّ مـــا كان من أنواع المعرفة في حاجة إلى الخبرة بجانب القدرة على الفهم والاستيعاب . ومن هنا ينجز الـــشباب دراســـته الجامعية بنجاح ، وينجز كذلك قدراً من دراساته العليا بقدرة ملحوظة على الاستيعاب والتحصيل . ويتعرض لمناقشة **كل** المشكلات ، شاعراً أن لديه القدرة على مناقشتها ! وكثيراً ما تكون مناقشته سطحية أو متفلسفة بغير موجب ! ذلك أن النظر في المشكلات والبحث عن حلول لها أمر يتعلق بالخبرة أكثر مما يتعلق بالمعلومات المحـــشودة في ذهـــن الإنسان . ولكن الشباب لا يدرك هذه الحقيقة إلاّ متأخراً ، حين يحصّل قدراً معقولاً من الخبرة ! أما في شبابه الباكر فيظن أن معلوماته وقدرته على التفكير المجرد كفيلتان بحل أعقد مشكلات البشرية ! ومن ثم يجد في نفسه الجرأة على النقد ، وإعلان رأيه في بساطة واعتداد وبلا تحفظ ! كما يكون نقده قاطعاً وحاسماً لا يقبل الرفـــق ولا التوســـط ، ويكون مقتنعاً بمنطقيته وسلامته فلا يسهل عليه الرجوع عنه ! ولذلك يتعرض الشباب للاندفاع والشطط في تلـــك الفترة ما لم يجد التوجيه التربوي السليم الذي يعوده على الانضباط ويقوّم بين يديه المعايير .

ومع ذلك الاعتداد بالذات ، والاعتداد بالعلم ، والاعتداد بالرأي ، والاعتداد بالقدرة على النظر في الأمور ، فإن في نفس الشاب كما كان في نفس المراهق من قبل قابلية شديدة للاستهواء ! بل ربما كانت أوسع مدى وأعمق غوراً من قابلية المراهق لها .

هنا إعجاب شديد بالبطولة والتفوق ، إن لم يضبط ضبطاً سليماً فهو عرضة للانحراف الشديد ، الذي يـــصل إلى (عبادة) البطولة في كثير من جاهليات التاريخ قديمها وحديثها سواء . وليس هتلر إلاّ نموذجاً واحداً من نماذج الجاهلية المعاصرة وغيره من عالم السياسة كثير . غير أن الجاهلية المعاصرة قد هبطت هبوطاً شائناً بمستوى (البطولة) ، وعبثت عبثاً ماجناً بقابلية الشباب للاستهواء ، فجعلت ممثلي السينما (وممثلاتها) الرقعاء هم الأبطال الذين يجرون الشباب عن طريقهم من خيط الاستهواء ليلقوا بهم في حمأة التفسخ النفسي والفساد الخلقي والتفاهة والتميّع والانحلال !

وبصرف النظر عن هذه الجاهلية بالذات ، فإن هذه القابلية الشديدة العميقة للاستهواء هي التي تجمّـــع الـــشباب حول القادة والزعماء ، وحول الفنانين والكتاب ، وحول المفكرين والعلماء ، سواء كان التجمع فكرياً أو عاطفيـــاً يبدو في إظهار الإعجاب بما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال ، والتحمس له ، والدفاع عنه ضد المعارضين والمنتقدين ،

أو تجمعاً حركياً في القضايا السياسية والاجتماعية ، يصل كلاهما إلى التعصب أحياناً وإلى الرغبة في العدوان .

وظاهرة الاعتداد بالذات والاستهواء للآخرين –رغم تناقضهما الظاهري– موجودتان بصورة طبيعية في الفطرة ، لأنهما خطان من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية ، يتم عن طريقها –في الفطرة السوية– التلقي من المصادر الجديرة بالتلقي عنها ، والإيجابية اللازمة للحركة في ذات الوقت[1] ، ولكنهما عرضة للانحراف ككل خطوط الفطرة حـــين يعوزهما التوجيه التربوي الصحيح ، فيتلقى الشاب –بدافع الإعجاب– من مصدر لا ينبغي التلقي عنه ، ثم يعتد بمـــا يتلقاه عن هذا المصدر إلى درجة التعصب ، كأن الأفكار أو الأفعال التي يتعصب لها هي أفكاره الذاتية وأفعاله الذاتية!

ونحن حتى الآن –نستعرض ملامح هذه المرحلة كما توجد عادة في نفوس الشباب ، و لم نتحدث بعد عن الشاب المسلم وعن التوجيه الإسلاميّ لتلك الملامح والسمات ، وإن كنا نستطيع أن نقدر –سلفاً– موقف المنهج الإســـلاميّ مما يحدث في الفطرة من انحرافات .

* * *

تحدثنا حتى الآن عن النمو الجسدي ، ونمو الاستعدادات والمواهب ، والنمو النفسي ، والنمو العاطفي ، والنمـــو العقلي ، وبقي أن نتحدث عن النمو الروحي .

لقد بدأ هذا في النمو في فترة المراهقة وهو هنا يتسع ويتعمق .

قل إن شئت إنّ البذرة الأولى لتفتح الفطرة لخالقها قد بدأت مبكرة في مرحلة الطفولة حين بدأ الطفل يتساءل عن أسرار الكون من حوله ويريد أن يعرف من الصانع صورة أوضح وأدق مع التفجر الذي حدث في كيان الفتى في سن المراهقة ، حيث تفجرت الطاقات معلنة عن وجودها كما تنبثق الأزهار في الشجرة خارجة من أكمامهـــا لتحمـــل الثمرة فيما بعد .

وهناك في تلك المرحلة جاء التكليف الرباني ، الذي يفرض على الإنسان –رجلاً أو امرأة– في سن البلوغ . جاء وقد أعدّ له فاطر هذه الفطرة سبحانه . أعدّ له بهذا الانبثاق الروحي الذي يصحب مرحلة البلوغ .

والآن نجد هذه الطاقة الروحية في أصفى حالاتها (ما لم تتدخل الجاهلية تدخلاً جذرياً لإفسادها) .

إنها فترة تديّن وبحث في أمور الدين .

فترة رغبة في التعرف الواعي على الخالق –سبحانه– بصفاته وأسمائه وأفعاله ، ومحاولة الاقتراب إلى أقصى المـــدى من حقيقة الألوهية .

فترة نظر في الوجود ومحاولة التعرف على أسراره .

فترة حب فياض للكائنات ..

ولئن كان بعض هذا كله يأخذ صورة ذهنية فلسفية جدلية ، إلاّ أن جانباً آخر منه يأخذ صورة روحية ووجدانية عميقة .

والشباب -بغير توجيه سليم- يتعرض في هذه الفترة أحياناً للشك (الفلسفي) في قضايا الألوهية والوحي والبعث والنشور والحساب والجزاء . ولكنه حتى عندئذ يعاني قلقاً (روحياً) لا ذهنياً فحسب . لأن الجانب الروحي في كيانه متفتح وفي حالة نشاط . وحين لا يجد الزاد الصحيح فإنه يضطرب ويختل ، ويكون القلق هو العارض الـــدال علـــى ذلك . ولكنه حتى في حالة اضطرابه موجود ومؤثر ومتأخر في ذات الوقت .

إنّ هذا التفتح الروحي -في حالته السوية- يحدث صلة عميقة جداً بالله ، ثم بالكون والحياة والأحياء .

صلة بالله تظهر في التفكر والذكر والعبادة والرغبة القوية في التقرب إلى الله بالنوافل وبصالح المـــشاعر وصـــالح الأعمال .

وصلة بالكون والحياة والأحياء تشعر الإنسان أن الحياة منبثة في تضاعيف هذا الكون كله ، وأنه هو جزء من هذا الوجود الحي ، مترابط معه ، موصول به ، متصاحب معه ، وليس جزءاً معزولاً عنه ولا معادياً له .

وحتى في حالة الضلال فقد يوجد هذا التدفق الروحي كله في صورةٍ وثنية ضالة ، تعبد الله على ضلالة . وتعبـــد الكون في صورة (عبادة الطبيعة) وتنحرف إلى ألوان من التقديس للحياة والأحياء .

ولكنها في هذه وتلك طاقة روحية أكيدة ، عميقة الوجود في الكيان النفسي في تلك الفترة بالذات .

والجاهلية المعاصرة -وحدها تقريباً في تاريخ الجاهليات- هي التي تعمل جاهدة على طمس طاقة الروح وتجريـــد الإنسان منها حتى في صورتها الوثنية الضالة ، ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً أو آلة صماء .

وهي درجة من الانحراف نحسبها فريدة في تاريخ البشرية . فحتى اليهود في جاهليتهم المادية التي غرقـــوا فيهـــا ، كانت لديهم حين جاء الإسلام بقية -منحرفة- من طاقة الروح استخدموها في السحر :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَـــابَ اللَّـــهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۞ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِـــنَّ الـــشَّيَاطِينَ

كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللَّـهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 101-102]

أما جاهلية (العلم) في هذا القرن العشرين ، فهي أجهل جاهليات التاريخ !

* * *

الآن وقد أعطينا وصفاً سريعاً للسمات البارزة في هذه المرحلة عند الشباب ، نتحدث عن الشاب المسلم في هذه المرحلة ، كيف يتكون وكيف يكون .

إنّ الإسلام دين الفطرة ، ما جاء ليغير مسار الفطرة أو يغيّر بناءها . إنما جاء ليبين مسارها الـصحيح ويقيمهـا عليه ، لأن فاطر هذه الفطرة هذا الذي نزّل هذا الدين ، وفصل فيه منهج الحياة . وقد فصله سبحانه بحيث يتلـبس بالفطرة تماماً –في حالة سوائها– ويقوّمها في حالة انحرافها لتستقيم .

وكل ما عرضناه من سمات هذه الفترة فإن له توجيهه المناسب في المنهج الرباني ، الذي يجعله في أحسن تقـويم . وما علينا –في التربية– إلاّ أن نطبق توجيهات المنهج فإذا لدينا ذلك الشاب المؤمن الذي نشأ في عبادة الله ، والـذي نوّه به رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن المستحقين للجنة عند الله : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ** » متفق عليه

وإنها لصورة كريمة حقاً ومشرقة حقاً تلك التي تصفها تلك الكلمات : شاب نشأ في عبادة الله .

وهذه الصورة الكريمة المشرقة لم تكن قط خيالاً مثالياً غير قابل للتطبيق ، بل كانت واقعاً . لأن المنهج الرباني نزل لينشئ واقعاً مشهوداً في الأرض ، لا لينشئ أحلاماً جميلة غير قابلة للتطبيق .

وانظر إلى الشباب في عهد رسول الله ﷺ وعهد التابعين كيف كانوا .. بل انظر إلى شباب المسلمين في قـرون متطاولة من التاريخ بعد تلك الفترة المثالية الفريدة ، ثم انظر إلى شباب الجاهلية المعاصرة الممسوخ المـشوه الكيـان ، واعجب –إن شئت– كيف يكون هذا وذاك نموذجين لنوع واحد من الخلق ، هو (الإنسان) ! لا جرم أن الآخـرين هم كالأنعام بل هم أضل !

ألا إنه الإنسان مرة في أحسن تقويم ، ومرة أسفل سافلين !

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الـــصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين : 4-6]

* * *

قلنا في عرضنا لسمات هذه الفترة إنّ القوة الجثمانية للشاب بدأت تظهر ، وبدأ هو يعنى بإبرازها .

ونقول هنا إنّ منهج التربية الإسلاميّة يعطي هذه الظاهرة حقها ولكن على طريقته الخاصة .

إنّ كثيراً من مناهج التربية في القديم والحديث قد أولت عنايتها لهذه الظاهرة فجعلت للشباب ساحات وملاعب يدرب فيها عضلاته ويقويها ويستزيد فيها من قوة الجسد إلى أقصى الغاية . والشباب من تلقاء نفسه –ولو ترك بغير توجيه على الإطلاق– يتجه إلى اللعب والرياضة لتصريف الفائض من طاقته الحيوية وتقوية جسمه في ذات الوقـــت . وكان اليونان والرومان يعنون عناية شديدة بكمال الجسم وجماله واقتداره وقوته ، كما كان غيرهم من الشعوب .

والإسلام كذلك يعنى بقوة الأجسام واقتدارها ، فيوجه إلى الرياضة للشباب وخاصة السباحة والرماية . يقـــول الحديث : « علموا أولادكم الرماية »

ولكن العبرة ليست بتقوية الجسم وتدريبه . إنما تكمن العبرة –التربوية– في الهدف من وراء ذلك .

هل القوة الجسدية غاية في ذاتها كما كانت عند الإغريق ؟ أم هي وسيلة لغاية ؟ وأي غاية هي ؟ الاستمتاع بمتاع الأرض أطول مدى مستطاع دون أمراض أو بأقل قدر من الأمراض كما هو الهدف الغالب من الرياضة في الجاهليـــة المعاصرة ؟ أم هو تلهية الجماهير عن مظالم الطغاة كما هو مشاهد من (جنون الكرة) في كثير من بقـــاع الأرض ؟ أم هو الإعداد للقتال كما كان في روما القديمة وكما كانت النازية تصنع في التاريخ القريب ؟ وحين يكون الهدف هو الإعداد للقتال فأي قتال هو ؟ وفي سبيل أي شيء ؟!

إنها –كما ترى– أهداف متعددة ومختلفة ، وإن كانت صورة الأداء واحدة في جميع الحالات ، والعبرة بالهدف لا بصورة الأداء .

والإسلام يعنى بقوة الأجسام لسببين أحدهما عام والآخر خاص . فأما السبب العام فهو الـــذي يبينـــه حـــديث الرسول ﷺ : « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ** » رواه مسلم وغـــيره ، وأما السبب الخاص فهو الإعداد للجهاد في سبيل الله . والسببان يلتقيان في الحقيقة . فهذا الدين دين قـــوة وغلبـــة ، وليس دين استخذاء وضعف . وقد نزل ليحكم الأرض ، ويقيم فيها حكم الله ، ويزيل منها الطواغيت الـــتي تعبّـــد

الناس لها من دون الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيدًا ... ﴾ [البقـرة : 143]

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : 9]

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ... ﴾ [الأنفال : 39]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ [التحريم : 9]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ... ﴾ [التوبة : 123]

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِـمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴾ [الأنفال : 60]

﴿ ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الفتح : 29]

ودين على هذا النحو ، يعدّ أهله لإقامة الحق والعدل في الأرض ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإزالـة الطواغيت من الأرض ليكون الدين كله لله لا للطواغيت .. دين كهذا يحتاج إلى قوة وإلى أقوياء .

والقوة معنى شامل ، يشمل قوة الأرواح وقوة العقول وقوة النفوس وقوة الأبدان . والإسلام حريص عليها كلها في آن .

وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على أبدان أمته أن تكون قوية صحيحة ، كما كان حريـصاً علـى أرواحهـم وعقولهم ونفوسهم . وقد أعطاهم ألا يسرفوا في الطعام وبيّن لهم أن المعدة بيت الداء لتظل أجسامهم بعيـدة عـن الأمراض . كما أوصاهم أن يتدربوا التدريبات الرياضية العنيفة كالسباحة والرماية وركوب الخيل لتشتد أجـسامهم وتقوى ، وتكون عدة لهم في الجهاد .

ولكن ما الفرق إذن بين الإسلام وبين الدولة الرومانية القديمة أو بينه وبين النازية الحديثة ، وقد كانت كلتاهمـا تدعو إلى القوة والغلبة ، وتعدّ شبابها للقتال ؟

الفرق ليس في الصورة وإنما في الجوهر . ليس في الوسيلة وإنما في الغاية .

لماذا يقاتل الإسلام ، ولماذا يقاتل الكفار في القديم أو الحديث ؟

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ... ﴾ [النساء : 76]

إنه ليس القتال في ذاته ، إنما السبيل والغاية ، في سبيل من ؟ وفي سبيل ماذا ؟

لتوسيع الرقعة ؟ لإرضاء الزهو ؟ لاستعباد الآخرين وقهرهم ونهب خيراتهم ؟ لتحقيق المصالح الخاصة ؟ للتكالب على متاع الأرض ؟! تلك هي الأهداف التي تقاتل من أجلها الجاهليات ، وتقدم شبابها وقوداً لصراعاتها .

وتلك بالذات التي جاء الإسلام ليحاربها ، ويقاتل الطغاة الذين يسخرون شعوبهم من أجلها ، ويحرر تلك الشعوب من استعباد الطغاة لها ، وذلك بأن يدعوهم لعبادة الله الواحد فيتحرروا لتوّهم من جميع الأرباب الزائفة التي تعبد من دون الله ، وفي مقدمتها أولئك الطغاة بنظمهم وتشريعاتهم التي يستعبدون بها الناس .

وأمر المسلمين أن يدعوا الناس إلى الإسلام أولاً ، فإن أسلموا –لله لا لهم– فقد انتهى الأمر و لم يعد هناك قتال :

﴿ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : 11]

فالإسلام إذن دين دعوة أولاً . دعوة لله . فإن أبى الناس الإسلام ، وأبوا الخيار الثاني وهو إعلان الخضوع لقوة الإسلام وعدم الخروج عليه ومناوأته ، فعندئذ يقاتلون . ويقاتلون لا لإكراههم على العقيدة ولكن لإقامة العدل الرباني في الأرض ، المتمثل في تحكيم شريعته ، والناس أحرار بعقائدهم في ظل الإسلام .

وفي هذه الأهداف يقاتل المسلمون . لتكون كلمة الله هي العليا . لا ليكون جنس أو قوم أو أفراد من البشر هم الأعلون .

وحين يربي الإسلام أهله جميعاً –وشبابه خاصة– على القوة ، ما في ذلك قوة الأبدان ، فليس لينكبوا على متاع الأرض حلاله وحرامه سواء ، ولا ليكتسبوا بأجسامهم في مباريات محترفة ، ولا ليتلهوا عن محاربة الظلم الواقع عليهم ، ولا ليطغوا في الأرض ويظلموا ، ولا لينهبوا خيرات الشعوب .. إنما يربيهم على القوة –بما في ذلك قوة الأبدان– وهو يذكرهم في كل لحظة أنهم عباد الرحمن ، الذي يخشعون للرحمن ، ويأتمرون بأمر الرحمن ، كما وصفهم القرآن في آخر سورة الفرقان [63–76]

﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ... وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ...** ﴾

وهكذا لا تنفصل تربية الأجسام في منهج التربية الإسلاميّة عن تربية الأرواح ، وتكون الأجسام القويــة وســيلة لنشر الخير في الأرض ، لا لنشر الشر والفساد . وفي ذلك يتفرد المنهج الرباني عن مناهج البشر كلها خلال التاريخ .

* * *

وقلنا هناك إنّ المواهب والاستعدادات بدأت تظهر ، وبدأ الشاب يتعز بها وينميها .

والإسلام حريص على هذه المواهب والاستعدادات يربيها وينميها ولا يكتبها ولا يتركها تتبدد بغير طائل .

وقد كان رسول الله ﷺ يعرف كل موهبة من مواهب أصحابه ثم يستخدمها في خــير مجالاتهــا ، ويــستخدم صاحبها حيث تكون موهبته أنفع للإسلام والمسلمين .

وذلك هو منهج التربية الإسلاميّة .

إنّ الموهبة في ذاتها طاقة محايدة يمكن أن تستخدم في سبيل الخير كما تستخدم في سبيل الشر سواء . وليست هناك موهبة شريرة بذاتها ولا خيّرة بذاتها . إنما التوجيه الذي تتلقاه هو الذي يجعلها خيّرة أو شريرة .

فماذا يتوقع من منهج التربية الإسلاميّة إزاء المواهب والاستعدادات ؟

إنه لا يكبتها لأنها موهبة ربانية . وكل ما وهب الله للبشر فهو رزق ينبغي أن ينموه ويستغلوه ويشكروا فضل الله عليهم فيه .

ولا يبددها لأن تبديد الطاقة مخالف لتعاليم الإسلام كلها ومخالف لروحه كذلك .

إنما يوجهها وجهة الخير ، التي تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة ، وتنفع الناس :

﴿ ... **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ... ﴾ [الرعد : 17]

ولنأخذ مثلاً موهبة الشعر ، التي يُظن أن الإسلام حاربها وكرهها وكرّه الناس فيها ، بسبب قولــه تعــالى : ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الشعراء : 224-226]

فبصرف النظر عن هذه الآيات نزلت في شعراء المشركين الذين كانوا يهاجمون الإسلام ويــسبون الرســول ﷺ والمؤمنين ، فإن العبرة بالنص ذاته لا بسبب نزوله . فالنص يصف سلوكاً معيناً هو في ذاته معيب ولا يستحق الاحترام أو التقدير : ﴿ **فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** ﴾ ﴿ **يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** ﴾ .

ثم إنّ النص القرآني الذي بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** ... ﴾ لم يجعلها قضية عامـــة شـــاملة لا استثناء فيها . إنما استثنى منها –برغم صيغة العموم في الآية الأولى– طائفة معينة ذات سلوك آخر مختلف :

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُـــوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** ﴾ [الشعراء : 227]

فتبين من النص أنه ليس الشعر في ذاته هو الملعون ولا الشعراء بجملتهم جميعا . إنما السلوك الجاهلي بالشعر هـــو المذموم ، والسلوك الإيماني به خارج من الذم ، بل هو في مقام المديح من ظاهر ما وصف به ذلك الفريق .. ومعروف أن الرسول ﷺ كان يقرب إليه حسّان بن ثابت (شاعر الرسول كما يطلق عليه) ويستحثه على القول ، ويقول له : « قل وروح القدس معك » وهو أكبر تشجيع له وأكرم تشجيع .

فلم تكن الموهبة في ذاتها إذن ، إنما طريقة السلوك بهذه الموهبة ، هي التي تضعها في سجل الخير أو سجل الـــشر ، والتي تجعلها مطلوبة ومرغوبة أو منبوذة ومذمومة .

وهنا –بالنسبة للشعر– يعرض سؤالان ، نجيب عليهما لأنهما في نظرنا داخلان في منهج التربية الإسلاميّة :

ألا نقدر الفن ذاته كفن ، بصرف النظر عن الموضوع الذي يتناوله ؟!

ثم .. هل نريد الشعر –أو الفن عامة– وعظاً ودعوة إلى مكارم الأخلاق لكي نبيحه ونشجع الشاب الموهـــوب عليه ، وإلاّ قتلنا موهبته وضيعناها ؟

فأما الفن للفن فهي صيحة جاهلية لا يقرها الإسلام ولا يتقبلها . بل إنّ الشيوعية ذاتها –وهي جاهليـــة– قـــد رفضت أن يكون الفن عارياً من الالتزام . ولكنها حددت مجال الالتزام في حدود جاهليتها وحدها ، أي الحديث عن الشيوعية وعن صراع الطبقات وعن آلام الطبقة الكادحة المسحوقة تحت ضغط الإقطاع والرأسماليـــة ! وحرمـــت – مثلاً– أن يكون الحديث عن آلام هذه الطبقة من الزاوية (الإنسانية) فهذا في نظرها عبث فارغ لا يؤدي إلى شيء أن لأن الإنسانية خرافة ! إنما ينبغي أن يكون الحديث من خلال صراع الطبقات لكي يتفجر الحقد الطبقي وتثور الطبقة الكادحة وتسحق ما عداها من الطبقات !

والإسلام يرفض أن يقيم مفاهيمه على هذه الأسس المريضة الضيقة المحدودة الآفاق ، وهو الذي يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ... ﴾ [الحجرات : 13] ويقول : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَـــثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : 70]

إنما يكره الإسلام الظلم ، ويدعو إلى إزالته ، ويندد بالساكتين عليه بدعوى أنهم مستضعفون في الأرض ويسميهم (ظالمي أنفسهم) .. ولكن لا على أساس الصراع الطبقي والحقد الطبقي ، إنما على أساس إنسانية الإنسان ، الــذي كرمه الله وينبغي أن يظل مكرماً . والذي خلقه في أحسن تقويم ويأبى له أن يهبط أسفل سافلين . ثم يبين المنهج الذي يتم به تحرير الإنسان من كل طواغيت الأرض ، وهو عبادة الله وحده بلا شريك ، وإقامة المنهج الرباني في الأرض ، وهو المنهج الذي يقف للطغاة بالمرصاد ..

والفن الإسلاميّ هو الذي يدور في فلك هذا المفهوم الواسع الشامل ، الذي يأخذ الإنسان كلاً متكاملاً كما هو في حقيقته ، لا يتحدث عن معدته وحدها ، ولا عن جانبه المادي وحده ، إنما عن كيانه الإنساني كله الذي يــشمل جسده وعقله وروحه ، ويشمل دنياه وآخرته . ويشمل علاقته بربه وعلاقته بالكون والحياة والأحياء .

وهذا شيء أضخم بكثير جداً من الوعظ والحديث المباشر عن مكارم الأخلاق . وأضخم من أي مفهــوم فــي عاشت به البشرية في أي وقت من الأوقات .

فالشاب المسلم ذو الموهبة الفنية طاقة ثمينة ينبغي الحرص عليها وتشجيعها وتنميتها ، وتوجيهها لخدمة الإســلام على ذات النحو الذي كان الرسول ﷺ يشجع حسان بن ثابت على قول الشعر .

ولئن كانت ظروف المعركة يومئذ قد اقتضت أن يكون شعر حسان رضي الله عنه دفاعاً مباشراً عن الرســول ﷺ وعــن الإسلام ، وسبّاً مباشراً للكفر والكفار ، فليست هذه الطريقة الوحيدة للأداء في منهج الفن الإسلاميّ ، إنما يكــون الأمر أجمل من الوجهة الفنية كلما استطعنا أن نصل إلى أهدافنا ونبلغ توجيهاتنا عن طريق غير مباشر ، مــن خــلال حركة النفس البشرية في إطار الأحداث(ص)

وإذا كنا تحدثنا عن الشعر والفن فلا نحتاج أن نتحدث عن عناية الإسلام بالمواهب والاستعدادات الأخــرى ذات الطابع العلمي أو العملي خاصة ، فكلها طاقات يحرص عليها الإسلام ، ويستخدمها المجتمع المسلم والدولة المــسلمة حين يقومان ، وتستخدمها الجماعة الداعية إلى الإسلام في الوقت الحاضر ، لخدمة الأهداف الإسلاميّة في جميع ميادين الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية والعملية ، وفي ميدان الدعوة كذلك ، وهو ميدان واسع وبالغ الأهمية ، فنحن نعيش في عصر صراع الدعوات (التي يسمونها أيديولوجيات) والذي تستخدم فيه كل وســائل الدعوة الظاهرة والخفية ، ويحتاج من المسلمين إلى جهد فائق لتمييز الحق من الباطل ، لذات أنفسهم وللبشرية كافة .

وهنا كذلك يتميز المنهج الإسلاميّ عن المناهج التربوية الأخرى التي تُعنى عنايــة ملحوظــة بتنميــة المواهــب والاستعدادات ، كما رأينا تميزه من قبل في العناية بالطاقة الجسدية للشباب .

إنّ المواهب –كل المواهب– هي كما قلنا طاقات محايدة يمكن أن تستخدم للخير كما تستخدم للشر . وجميــع

الأمم والمجتمعات تعلم ذلك ، ولكنها تختلف في تقدير (الخير) و(الشر) ، باختلاف المفهــوم الــذي تعــيش بــه ، وباختلاف نظرتها إلى غاية الوجود الإنساني .

فأما إن كانت غاية الوجود الإنساني مجهولة كما يقول الشاعر الجاهلي المعاصر :

جئت لا أعلم من أين .. ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت ..

فكل إنسان إذن وشأنه .. والموهوب وموهبته يتصرف بها كيف يشاء ! ولا معيار للخير أو الشر على الإطلاق !

وأما إن كانت غاية الوجود الإنساني أن يحقق ذاته فرداً مستقلاً قائماً بذاته على حساب الجميع وعلى الرغم من الجميع كما تقول وجودية سارتر(ﷺ) ، لأن الوجود الإنساني كله لا غاية له ، والوجود الكوني لا غاية له ، فلم يبــق إلاّ أن يحقق الإنسان وجوده الذاتي على هذه الصورة .. فالمواهب والاستعدادات كلها عبث ، ولا مجال للحرص على شيء منها في هذه الحياة ، إلاّ بقدر ما تعين صاحبها على سحق الوجود البشري كله لتبقى الذات المفردة لصاحبها !

وأما إن كانت الغاية هي العمارة المادية للأرض والاستمتاع بما فيها من متاع بصرف النظر عن حرامه وحلالــه وحقه وباطله ، كما هو شأن الجاهلية المعاصرة في عمومها ، فستحدث تنمية هائلة للاستعدادات والمواهب في جميــع الاتجاهات -والعملية خاصة- ولكن على ذات الأساس الذي لا يفرق بين الحــلال والحــرام والحــق والباطــل . وستستخدم الاستعدادات والمواهب على نطاق واسع في خدمة الصراع الجبار الذي يحدث بين الأفراد والجماعــات والدول والشعوب ، التي تتصارع كلها على متاع الأرض ، ويسعى بعضها إلى سحق بعــض ! وتكــون المواهــب والاستعدادات كلها -أو جلها- في خدمة الشيطان ، كما تستخدم الطاقة الذرية في التخريب والتــدمير ، وكمــا تستخدم حبوب منع الحمل لإشاعة الفاحشة في الأرض ، وكما يستخدم فن الصورة المتحركة في إفــساد الأخــلاق وحل الروابط البشرية في السينما والتلفزيون ، وكما يستخدم (العلم) كله -حتى النافع منــه- في إفــساد العقيــدة وصرف الناس عن عبادة الله ، بدعوى أن الإنسان قد شب عن الطوق و لم يعد في حاجة إلى وصاية الله !

أما في منهج التربية الإسلاميّة فتنمّى المواهب والاستعدادات لتخدم غاية الوجود الإنساني كما حدده الله خــالق الإنسان :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56]

على المعنى الواسع الشامل للعبادة الذي لا ينحصر في شعائر التعبد كما صار في حس الأجيــال المتــأخرة مــن المسلمين ، إنما يشمل الحياة كلها بكل فكرها وشعورها وسلوكها كما فهمت الأجيال الأولى من الصحابة والتابعين

رضوان الله عليهم من توجيهات القرآن وتوجيها الرسول ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ ... ﴾ [الأنعام : 162-163]

فهي تشمل الخلافة في الأرض ، وتشمل عمارة الأرض ولكن على منهج الله .

ليست العمارة المادية وحدها هي المطلوبة من الإنسان ليحقق وجوده الصحيح في الأرض . إنما هي العمارة على أساس من القيم والمبادئ التي تليق بالإنسان . على أساس إقامة الحق والعدل الربانيين في واقع الأرض . ومن ثم يحكم المتاعَ معيار الحق والباطل والحلال والحرام ، الذي هو معيار الدنيا والآخرة في ذات الوقت .

وفي خدمة هذا المنهج الواضح المفصل –في الكتاب والسنة– تنمّى المواهب والاستعدادات في منهج التربية الإسلاميّة ، فتكون ذات هدف خيّر واضح ، وتكون في خدمة الله لا في خدمة الشيطان .

ولقد نحتاج أن نتعلم من الجاهلية المعاصرة وسائلها البارعة في تنمية الاستعدادات والمواهب ، وهي وسائل بارعة حقاً ، ما دام الخط قد انقطع بيننا وبين واقعنا التاريخي الذي كانت فيه الأمة الإسلاميّة أبرع أمة في الأرض وأحسنها استخدامها لمواهب أبنائها واستعداداتهم الفطرية .. ولكن الذي يحدث حين نرسل أبناءنا ليتعلموا في معاهد الغرب وجامعاته وسائل تنمية هذه الاستعدادات ، أنهم لا ينقلون الوسيلة وحدها كما ينبغي أن يحدث ، إنما ينقلون الوسيلة ملفعة بالغاية ، فيختلط الخير بالشر –ويغلب الشر– لأن أبناءنا هؤلاء –حين يعودون– يعجزون عن استخلاص الوسيلة وحدها وتطويعها لأهداف أخرى من عند أنفسهم ، لأننا نرسلهم –في الحقيقة– وليست لهم أهداف ذاتية ولا منهج ذاتي يفكرون به ويسلكون ، لأننا –في حقيقة الواقع– لا نعيش الإسلام منهج حياة ، فلا نملك ما نتميز به عن الجاهلية السائدة في الأرض !

ولقد كانت أوروبا في بدء نهضتها ترسل أبناءها ليتعلموا العلم في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية وغيرها من أماكن الحضارة الإسلاميّة ، فيتعلمون الوسائل وحدها ويرفضون أن يأخذوا معها أهدافها الإسلاميّة وهي الحق المنزل من عند الله ، ويصرون –يومئذ– على باطلهم . الذي كفروا به اليوم فأسلمهم إلى الضياع . أفنكون نحن على هذه الدرجة من الهوان فنعجز عن فصل الوسائل عن الغايات المنحرفة التي تتلفع بها ، ونصر على أن نتبع أوروبا في طريق ضياعها ونحن نملك الحق المنزل من عند الله ؟!

– للكلام صلة –

---

(1) انظر فصل (خطوط متقابلة في النفس البشرية) في الجزء الأول من كتاب (منهج التربية الإسلاميّة) الفقرة الخاصة بالسلبية والإيجابية .

(2) انظر –إن شئت– حديثاً مفصلاً في هذا الموضوع في كتاب (منهج الفن الإسلاميّ) .

(3) انظر مسرحية (الجحيم هو الآخرون) .